بشير الهاشمي

# مجالات التعاون في نشر كتاب الطفل

من ابرز معالم الوعي الحضاري في عالمنا العربي ومن أهم ملامح يقظته المعاصرة عنايته بشأن الطفولة واهتمامه المتزايد بها في مختلف مجالاتها ودأبه المتواصل من اجل خلق الوسائل الكفيلة برعايتهـــا صحيا واجتماعيا وتربويا وثقافيا ، وهي عوامل ووسائل تتداخـــل وتتشابك في هدف مشترك واحد ، هو ايجاد الضمانات السليمـــة لمستقبل الطفولة السعيدة المرحة المستطعمة لمذاق طفولتها وهي تعيشها وتمارسها بلا مرارة ولا خوف في أن تتحول في مراحل متقدمة من العمر الى مجرد ظلال باهتة كئيبة تخزنها الاعماق وتستنطقها حسرة ولوعة .

الطفولة المعانقة ليوم طفولتها والآمنة المطمئنة لغدها المشـــرق المسبغ بدفق الحنان وتشوق الابتكار المتفتح للبراعم الصغـــيرة وتطلعات عالمها الطفولي البكر .

ولا اعتقده مبالغا ذلك التعبير القائل بأن الطفل هو سيد العالم اليوم ، فهو الشغل الشاغل للمتخصصين والباحثين في أي مجال له شأن بالطفولة ، وهو مركز استقطاب الدراسات والتجارب النظرية والتطبيقية ، ذلك أن الطفولة لم تعد مجرد مرحلة مبكرة من مراحل العمر يتقاذفها الزمن ويطويها ليسلمها الى مرحلة أخرى متقدمة ، بل هي مرحلة هامة ودقيقة في تكوين انسان المستقبل وخلق مقومـــات بنائه ما يتوفر لها من وسائل وامكانيات من خلال معايير علمية متطـورة تستهدف التوافق والتناسق بين الطفـــل وعالمه الصغير المشحـــون بالاحاسيس والرؤى وبين مجتمع الكبار من حوله وبما تنعكس عليه من مؤثرات ثقافية وتربوية واجتماعية يتلبسها الطفل ، سواء في محاكاته لها وهو يتشبه بالكبار أو تشبعه بها وتأثرها فيه مع تطورات نموه .

ومن البديهي أن النظر الى الطفولة على انها مجرد مرحلة عابثة من العمر قد نقابلها بالاستخفاف والضحك فحسب هي نظرة من شأنها أن تتلاشى وتزول أمام ارتفاع الوعي وتطور الادراك بأن نفسية الطفل وعقله يمثلان آلة بالغة الدقة والحساسية والرهافة في التلقي والتأثر وتسجيل الملاحظة بما يتطلب التعامل معه ببالغ الحذر وباستخلاص النتائج العلمية التي توصل اليها الباحثون والدارسون في مجالات الطفولة . وينبغي ألا يأخذك الضيق عندما يقال لك ليس من حقـــك الذهاب وحدك الى محلات بيع لعب الاطفال لشراء شيء منها لطفلـك وانما ينبغي ان تسترشد بتوجيهات المربي المختص ليدلك على اللعبـة المفضلة لطفلك والملائمة له ، ليس بالنسبة لاختلاف السن فحسـب وانما أيضا لنوعية اللعبة من طفل الى آخر ، بما يتوافق وذلك الجهاز الدقيق الكامن فيه . وعلى هذا المنوال ومثلما تذهب بطفلك الى الطبيب ليحدد لك نوع دوائه وغذائه ، فأنت ملزم بتحديد اختياراتك في لعبـه ولباسه وادواته التي يستعملها. وأخيرا وليس آخرا كتابه الذي يقرأه وأيضا ما يشاهد في السينما والمسرح وما يسمع من الموسيقى ..ومن أجل سعادة هذا السيد الصغير ازدهرت المؤسسات العلمية والصناعية وتعددت نوعيات اختصاصها وتفرعت ، ودخلت التجارة بدورها هذا الميدان واحتلت مكان الصدارة فيه ، وهي تحـــاول السيطرة على المنافسة في الكسب المربح وتتجاذب الطرف مع تطورات العلم . وآخر نتائج المختصين في شؤون الطفل . ومهما كانت المآخذ والمؤثرات فهو الرابح أخيرا بهذا الاهتمام المتزايد في توفير متطلبات عالمه الصغـــير وما يريحه ويرضيه وبما يوجد منه انسانا متكامل المقومات ، وهـــكذا عرفنا أن للطفل اشرطته السينمائية الخاصة ومسرحه الخاص الذي انتشر وتعدد في مختلف ارجاء العالم واسطوانته الموسيقية الخاصة وحتى مدنه السياحية والتعليمية ، وتشكلت مراكز الابحاث العلمية بشأنه وانعقدت المؤتمرات الدولية من أجل تنسيق الجهود المتعلقـــة بمجال من مجالاته .

ومع ذلك فقد ظل كتاب الطفل ومجلته من أهم مراكز الاستقطاب الحيوي في مجال العناية به ومن أنجح الوسائل المجدية في عالمه الصغير. ومن هنا كان مصدر الاهتمام المتزايد في العالم بكتاب الطفل ونوعية مادته وصياغتها واشكال طباعتها وحجمها مع اختلاف مراميها وغاياتها ووسائل مخاطبتها له بالحرف والصورة وحتى بالكلمة المنطوقة على اسطوانة مسجلة . ولم يعد في معارض الكتب الدولية مجرد شـريك متواضع باسهامه ومشاركته بل صارت تفرد له المعارض الخاصـــة والملتقيات الباحثـة لثقافته وسبل تربيته ، وسارعت وسائل النشر المتعددة الى وضع كتاب الطفل في مقدمة اهتماماتها ومشاغلها ومنها ما اقتصر نشاطها في مجـاله وتخصصت فيـــه ثم اقتضتها ضرورات التوسع والتكامل الفني والمادي والعلمي الى التنسيق والمشاركة مـع دور النشر الاخرى ، خاصة فيما يتعلق بالمشاريع الكبيرة مثل دوائـر المعارف والموسوعات الخاصة بالاطفال والصبيان . وكان لهذا كله أثره وصداه في عالمنا العربي الذي ادرك بيقظته المعاصرة أهمية ما تتطلبه الطفولة من مستلزمات الرعاية والعناية والتربية السليمة وما تقتضيه هذه من وسائل وأدوات في مجال الكتاب خاصة حيث اقتصرت مراحلها الاولى على ريادة الاديب والكاتب العربي في اعداد النص وتقديمـه للطفل .

ولعله من حسن طالعه أن يتحمل خوض غمار هـــذه التجربة في بدايتها البكر رعيل من رواد الفكر العربي المعاصر بما لهم من حصيلة فكرية عميقة وتجربة متعددة الاطراف والجوانب ، اضافة الى تشبعهم وامتلاء وجداناتهم بالروح القومي الزاخر وحماسهم الناضج مع تطور اليقظة القومية فلم تعدم تجاربهم من الاصالة والصدق ولم تقف عنـد حدود التقليد والمحاكاة لنماذج واشكال دخيلة عليهم . كان في مقدمة هذه الاسماء رفاعة رافع الطهطاوي والشاعر احمد شوقي وعلي فكري ومن بعدهم كامل الكيلاني ومحمد سعيد العريان وعند الاســـمين الاخيرين كان النص الادبي المعد للطفل يستنبط سماته الفنية شكلا ومضمونا ويصنع من بداياتهما جسرا لادب الطفولة المرتقب في الوقت الذي يلفت فيه النظر الى مدى الحاجة الملحة لمثل هذا الادب وأهمية وجوده في مضمار ابداعات الفكر العربي ، وينبه الهيئات والمؤسسات العلمية والادبية الى تدارك ما فاتها ويثير رغبة العديد من دور النشر الى خوض غمار التجربة ولو في أضيق الحدود وأقصرها .

وعلى مستوى الوطن العربي انعقدت باشـــراف جامعة الدول العربية ( حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربي ) في بيروت في ٧-٩-١٩٧٠م اسفرت عنها نتائج وتوصيات هامة ، وفي مؤتمر الادباء العرب المنعقد بالجزائر في أبريل ١٩٧٥م كانت الطفولة في الادب العربي من مواضيع المؤتمر التي قدمت بشأنها العديد من الدراســـات والابحاث ومن توصياته الهامة اعتمـــاد الطفولة كموضوع ثابت في المؤتمرات المستقبلية للادباء العرب .

هذه اللمحات العامة تسوقنا الى أن الطفل العربي قد اخذ يحتل مكانه البارز في مجال الكتاب خاصة ويتزايد بالتالي اهتمام الادباء

والباحثين بشانه وهو ما يعكس في النهاية عناية دور النشر ومؤسسات التوزيع بهذا اللون من المطبوعات واهتماما بالغا لما تقوم به من حركة ونشاط .

واذا كان للعديد من دور النشر اسهمها ونشاطها الجدير بالتنويه في هذا المجال فانه يتحدد في حقيقته عند النطاق الفردي لهذه الدور ، ويرتكز على جهودها الذاتية وهو ما يقيد تحركها ويربطها بمعايير تجارية مباشرة قد يؤثر على ما تقدمه من مضمون وقد تستغرقها ظاهرة التقليد والاقتباس المبالغ فيه تحت طائلة مقاييس الربح والخسارة لنماذج واشكال غريبة عن البيئة العربية ودخيلة على وجدانه ولا تولد في الطفل العربي روح الانتماء بقدر ما تستهلك فكره دوامة من الانبهار والاعجاب لهذا الغريب الدخيل . واذا كان الناشر العربي بحاجة الى تنسيق جهوده في خدمة الكتاب العربي عامة فان حاجته في مجال كتاب الطفل اكثر ضرورة واشد الحاحا من اجل تنشئة الطفل العربي عقلا ووجدانا وابراز مقومات التلاحم والتمازج القومي بامته وتربته وتراثه ، وذلك بتنسيق العمل المشترك بين دور النشر من خلال خطة مدروسة ومستوعبة للوسائل التربوية المطلوبة وواعية بالفوارق الجزئية الطارئة للطفل العربي بحكم بيئته من قطر الى آخر ، قادرة في الوقت نفسه على اذابتها واحتوائها بنظرة قومية شاملة تبني أسس الحاضر وتبشر بتطلعات المستقبل . وايضا فان مثل هذا التنسيق من شانه ان يغطي الاحتياجات الفنية والمادية المطلوبة وتبادل الخبرات والتعاون المثمر بمساندة المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية في الوطن العربي حيث تكون قادرة على ايجاد البديل للاعتبارات التجارية التي لا ينبغي اغفالها .

وان المرأ ليقف متسائلا عن اسباب انعدام هذا التنسيق والتعاون في مثل هذا المجال الحيوي في الوقت الذي يشهد فيه محاولات غزو ضارية لعقل الطفل العربي من خارج حدوده ، متعمدة التركيز على تغريبه وابعاده عن مصادره الاصيلة ومنابعه الحقيقية وشد ذهنه الى النموذج الاجنبي القادر على صنع المعجزات واختراعات العلم وخوض المعارك وغزو الفضاء واختلاق البطولات وغيرها . ان هذا كله بمثابة جرس الخطر الذي يدق منبها الناشر العربي الى مثل هذه الظاهرة الخطرة حتى يسارع الى تداركها بتخطيط علمي مدروس لفائدة الطفل قبل ان يكون وسيلة من وسائل التجارة، ولكي يدرك انه بازاء رسالة تقتضي امانة تحملها تكثيف جهوده وتوحيد قواه من اجل تحقيقها وفقا لمعايرنا القومية والحضارية وحتى يحقق الحصانة اللازمة لطفلنا العربي من اي عنصر دخيل قد يبهره بريقه ويأمر خياله وذلك بالعمل على التبشير بالنموذج المستقى من الارض العربية وتاريخها الفكري والنضالي والحضاري والتركيز على توحيد اسلوب مخاطبة الطفل العربي بالكيفية التي لا تتعارض ومقتضيات التنويع والتشويق لمضامين الكتاب وأشكاله ، والحرص على التقليل من الاقتباس والنقل والتقليد ، والحذر والتدقيق في اختيار النوعيات المقتبسة والمنقولة بالدرجة التي لا تتحول فيها الى عبء ثقيل على وجدان الطفل العربي .

وعليه فأن من الزم الضرورات الحاضرة العمل على انشاء مكتبة عربية للاطفال تتعاون فيها دور النشر باسلوب منسق بين كافة وسائلها الفنية ، وبين المتطلبات التربوية والثقافية والعلمية المتمثلة والمعايشة لمنابع تراثنا القومي والمعبرة عن شخصيتنا العربية والمنطلقة في تلاحم وتكامل خلال خطة عامة تساهم فيها جميع الجهات المعنية بشئون الكتاب سواء عن طريق جهاز مركزي منبثق عن دور النشر والمؤسسات الثقافية ومرتبط باتحاد الناشرين العرب ، او باي كيفية اخرى مقترحة لتتولى مهمة المرشد الثقافي والفني في مجال كتاب الطفل بالدرجة التي لا تعتبر فيها اقحاما او تدخلا في صميمية العمل الفني ، مع اهمية موازنة الاعتبارات المالية والتجارية بما يضمن تغطية النفقات العامة ويحقق لكتاب الطفل الدعم المطلوب ويحميه من مؤثرات السوق التجارية برصد الاعتمادات المالية له من قبل الهيئات والمؤسسات وبالدرجة التي تجعله في متناول الطفل العربي في كل مكان . واذا كانت المهمة صعبة وجسيمة وتحتاج الى توفر دراسات موسعة بشانها فان الكثير من جوانبها الملحة تتطلب المبادرة الفورية والسريعة من قبل الناشر العربي وفق الاعتبارات التالية :

١ ـ وضع احصائية شاملة للانتاج المقدم للطفل العربي واستخلاص الصالح منه والمناسب لاهداف المكتبة العربية للاطفال والملائم لمعاييره القومية وتراثه الديني والحضاري .

٢ ـ عدم الزج بكتاب الطفل الى صراع المنافسة التجارية بين دور النشر والحرص على اهمية المضمون وقيمته بمعزل عن حسابات الربح والخسارة .

٣ ـ الوقوف بقوة في وجه محاولات التغريب التي يتعرض لها وجدان الطفل العربي من خلال المسلسلات والكتب المترجمة التي تحاول شد انتباهه للنموذج الدخيل عليه .

٤ ـ الحرص في النقل والاقتباس والترجمة على ما له قيمة انسانية وفكرية عامة من التراث العالمي بما يعد اضافة جادة لثقافة الطفل ومنطلقا لاتساع مداركه .

وهذه في مجملها تتطلب بالضرورة اعتماد مقومات التعاون في مجالات نشر كتاب الطفل بوضع المشروعات المشتركة في مختلف منطلقاتها المحلية والقومية وطرحها للدراسة النظرية والعملية واستشراف مراميها القريبة والبعيدة الهادفة الى تغطية كافة الاحتياجات الثقافية والتربوية للطفل العربي .

ومثل هذه المجالات تعد مرتكزا حيويا لخدمة ثقافة الطفل العربي وتربية وجدانه ، ومن حقه على اجهزة النشر العربية المتعددة ان تستجمع جهودها وتتسانـد امكانياتها من آجل تحقيقها وانجازها .

١ ـ فما زلنا بحاجة الى دائرة معارف عربية للاطفال وهو مجال فسيح للتعاون بين اجهزة النشر لم تتطرق اليه بعد على ما يمثله من اهمية وخطورة . ومن غير المعقول ان تقتصر الجهود هنا عند الترجمة والاقتباس بل لابد من صياغة عربية للمعارف العامة لا تتعارض ووجدان الطفل العربي .

٢ ـ حاجة الطفل العربي للمعاجم العربية المصورة وقواميس اللغة للاطفال والحوليات المتنوعة التي تمنح عقل الطفل رسوخا ذهنيا ثابتا .

٣ ـ في مجال المعلومات العامة مثل كتابة تاريخ الوطن العربي للاطفال والاطلس العربي للاطفال بما يعطي لوجدانه القومي تفتحا ويقظة .

٤ ـ حاجة الطفل العربي الى مجلة للاطفال تعتمد الاصالة والجودة من خلال رؤية عربية سليمة دون مؤثرات خارجية .

ولن يكون هذا استقصاء شاملا لكل مجالات التعاون فذلك ما تتولاه الدراسات الموسعة بابعد من حدود هذه المحاولة المبتسرة لان غاية ما تطمح اليه ان تكون مصدرا ومنطلقا لحوار موضوعي في مجال كتاب الطفل يستكشف الطريق من اجل اعداد خطة عامة تستهدف تنسيق الجهود العربية في مضمار النشر ، بما يحقق الغاية المطلوبة من مقومات الثقافة الاصيلة والبناء السليم لطفلنا العربي العزيز وما يطمئن لهفتنا وتشوقنا لكل ما يحقق السعادة لهذا السيد الصغير .

بشير الهاشمي

طرابلس ـ ج. ع. ل